

إلى السباب النافض

الأدب الألهي ...

للأستاذ محمد روجي فيصل

قال صاحبي :

« والأدب لو تذبّرت متعة تلهو بها النفوس ، ولذة تنشط لها العقول ، وفن جميل تقرؤه فتبرز الأحلام ، وتتدافع الخواطر ، وتخف الحياة ، ثم تخلص إلى عالم حلوا لا يحجم عليه أنقال السى والميش ، ولا تحده قيود الجد والوقار . . . »

وسكت هامساً قد انفرجت عيناه الصغيرتان تستطلعان في وجهي أثر الحديث ، وتبينان ما عسى أن أقول ، فراعته أن أجمع الأنف وأزوى اللحظ وأقطب ما بين الحاجبين ، ثم أقوم هادئاً إلى مكتبي المتواضعة فأترع منها رسالة^(١) في مائة صفحة قد ألفت النظر إليها والانمام فيها منذ سنوات ، فما أتركها إلا لنوم أو طعام ، أو شأن من شؤون الدنيا . وشرعت أتله على صاحبي صفحة موجزة ليست جديدة في روحها ومعناها لدى القراء ، ولكنها جديدة طريفة في عيني ، أريد أن أذيعها اليوم في الناس ليتدبروها وليروا الرأي الذي يرتأون فيها

فافتح إن شئت أية مجلة عربية ، فانك لاشك واجدها قد جرّدت كثيراً من صفحاتها للشعر ، أو للشعر المنثور ، أو لغير هذا من القطع الغنية مما يسمونه أدباً ، وما هو من الأدب الصادق الصحيح في شيء ؛ والظاهر أن اعتبار الأدب وسيلة للتعبث والمفاكهة ، أو للتظرف والنادمة ، هو علة هذا الهراء والهديان ، وسبب قوى لكل ما يثرى الآداب والفنون من انحطاط وإسفاف ، وما يتدسس إليها من ألوان المجانة وفضول الكلام . ونحن في هذه المجالة إنما نبني تبيان أوجه الخطأ في هذه النظرة اللاهية الهازلة ، والكشف عن عمقها وفسادها ، وعن نتائجها الخطيرة التي تقتل في الأدب روح الجد والصدق والطبع وقبل أن نخوض في هذا الحديث الذي يستشرف له القلم

(١) نرجو أن نطبع هذه الرسالة قريباً

اليوم تقرر أن النهضة القومية التي تحدد بالأمر في مدارج العظمة والمجد ، وتنفت في الشعوب معنى القوة والاستقلال ، لاتطلع عليها إلا إثر النهضة الأديبة التي تهتاج فيها النفوس ، ويتيقظ الشعور ، وتلهب المواطف ، ويتحرك الكامن من الهواجس والأمانى ، فيكون الأدب بمثابة ناقوس يهيب بالركب الثاني إلى السير والعمل . فهذه ألمانيا لم يستطع ببارك تأليف وحدثها وضم دويلاتها بعضها إلى بعض إلا بعد أن تذوق الألمان آمار جوت وشيلر وهيني وليسنغ وهررد . وهذه فرنسا ما نهضت في الثورة الكبرى إلا بعد أن شاعت بين أبنائها مؤلفات روسو وفولتير ومونتسكيو . وشبهه بذلك إنجلترا في القرن السابع عشر يوم هبت للحياة العالية والفتح والسيادة ، فقد كان شكسبير وغير شكسبير نشروا قبل ذلك في الأمة الإنجليزية أرواحهم الحية ونفقاتهم القدسية

هنا ما تستفيد الجماعات من الأدب ؛ ولعل ما يعود منه على الفرد أجل وأرفع ، ذلك بأن الأدب باب كبير من أبواب السعادة ، وطريق ناعم ناضر تشم من جوانبه روائح الورد ، وتمتع باصرتيك في مسالكه بأكلام الزهور ، وتسمع في أجوائه إلى أناشيد البلابل الثائرة الخافقة . انك بالأدب تحيا حياة طيبة راضية ، تحيا حياة موسعة « مضاعفة » تحسها في أعماق قلبك ، وفي رجح شهيقك وزفيرك !

إن العطف والالفة قوام الهيئة الانسانية ، فلا ينم امرؤ بالانفراد ولا يهتأ بالوحدة ، وأحسب لو أن الناس جميعاً كانوا بجرّة خسرة لا يجوز منهم إلى جنة الله غير رجل واحد لكان هذا الرجل الصالح أتكد حظاً وأسوأ مقاماً ممن هم على النار يتقلبون ، كأني أراه في جنبات الفردوس وعلى ضفاف الأنهار يمشي على غير هدى وإلى غير غاية حتى تبلى قلمه ، وينظر إلى أفأويق النيم وألوان الجمال فتبدو له كثية محزونة ، ثم يرتجى في الجحيم الصالى يفضله على هذا النيم الذي لا يرى فيه من يقول له : ما أرغده ! وبحب ذو النعمة الحسد ، ولو ترغ من الصدور لاشتراه وفرقه على الناس مجاناً ليحسدوه على ما به من نعمة ! ويرتاح العاشق إلى من يتحدث إليه عن فرحة حبيبه وغضبه عدوله ... فالمعادة كما ترى لا تتم حتى تستجلي مثالها في المرأة ،

ونأسف لها ، فنحن ما تزال نحطى في تقديرنا للشعر ، وفهمنا للمعاني ، وتقديراً لقنون القول والبيان ، وما تزال بسطاء سذجاً نخدعنا بهرجة الكاذبة والطلاوة المايهة ، وتقتننا بالأعيب الفنية والافتقار الكلامية ، وترانا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجعل كل الجهل مقياس الأدب الصحيحة ، وحدود الجودة والرداءة ، ومواطن الجمال والعمامة ، نستحسن ما تنشئ منه النفس وما هو حقيق بالنبد والاهمال ، ثم نستقبح ما قد يكون في الذروة من البلاغة الرائعة ، فما أخرجنا إلى إصلاح هذه النظرة المقيمة التي نزن بها الآثار الفنية ، وتصحيح القوق الأدبي المقلوب ، وما أفرنا إلى من يأخذ بأيدينا إلى التماذج الحية فيدلنا على قوتها وحسن تمثيلها ، وإلى السخافة المرذولة فيرينا وجه ضعفها وعيبها . وعندى أن كل إنتاج في الأدب لم يبدأ بهذا الإصلاح على هذا النحو فانما هو محاولة قاشلة قاشلة ، ومضية للجهود المبذولة في غير طائل . . .

لقد كنا إلى عهد قريب أمواتاً نرتدى معالم الأحياء ، أمواتاً في حسنا وشمورنا وتفكيرنا ، أمواتاً في أهدافنا ومثلنا العليا ، أمواتاً في نظمنا ومراقبتنا الاجتماعية ، أمواتاً في كل شيء لا يسمع لنا نبض ولا خفق حياة . كنا أحياء نعيش في المدم أو يعيش المدم فينا ، كأن الغيب الجليل المازل قد قذفنا من جوفه جيشاً هامدة تقود من المهد في لحد ومن اللحد في مهد ، فأنت ، إذ تدرس الأدب العربي في هذه الفترة الفائلة من الزمان التي دامت ما يقرب من ألف عام ، لا تجد أثراً لما يتلجج في النفوس الخائفة من ضروب المواطن وشتى الانفعالات ، وما يجري في الهواجس من الأحلام والأوهام ، وما ينتاب الضائر من قلق أو يأس أو ألم ، وإنما تلقى أدباً فارغاً أجوف يفيض بالاحساس المكوس والاسفاف الخلل والصناعة البديعية أو التجميل التي يعتمد على الطباق والجناس والقابلة وما إليها ، وحسبك أن تقرأ شعر ابن نباتة وابن ممتوق والحلي لتلم بطرف من شعر اللفظ البالي المزبل الذي يجبس المعاني المشبوبة في أضيق الآفاق !

ثم اتصلنا بالغرب في يوم اسماويل وبمعه ، وكان اتصالاً وثيقاً تناول بالتبشير بعضاً من المعاديات والأوضاع الميشية ، وكثيراً من طرائق التفكير والتعليم ؛ وكان للاتداب من هذا

والانسان لا يطرب حقاً إلا إذا رأى كلام النفس مسطوراً على قطعة من طرس

فما دام التعاطف عماد الحياة فلن يوجد بغير تعبير ، لأن الحياة لا يمكن أن تكون بغير أدب ؛ تصور أمة تتملى في نفسها شعوراً سامياً : هنا تطمح آماله إلى السيادة ، وهذا يدفعه حب الخطر إلى جوب البحار ومجاهل الأرض ، وذلك تنزع قلبه بهجة الجمال وفتنة الحسن ؛ تصور أمة تجيش في نفوس أبنائها مختلف للبول والأهواء ملحة قاسية ، مكنتة دافقة ؛ أنتستطيع أن تتمثلها حرية من الأدب ؟ أما أنا فلست أعرف أمة حية لم يكن لها أدب جميل ؛ فان أمة لا تعرف الشعور مكتوباً لا تعرفه محسوساً

فالأدب كما ترى ليس حلية تزين بها الأمة جيدها ، وليس هو ألهية من الألهي كما يزعم الأستاذ شفيق جبري (١) لأنه لو كان كذلك لا تعظم في سمط الكليات ، والأدب إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة ، وشرط لازم لها ، لا يمكن تخيلها ولا تكمل سعادتها بدونها

ما ينبغي أن يكون الأدب ألهية من الألهي نبت بها على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء ، فان الشر كل الشر في هذه النظرة الخاطئة ، ذلك بأن الألهية تصدقنا عن جليل الحياة وعظيمها ، وتدفعنا إلى عالم البطالة نلهو ونميت ؛ فإذا نحن رحنا تصور ذلك ظفرنا بما لا خطر فيه ولا قيمة له ، ونكون كمن فاز بالقبض على الريح . واعتبار الأدب ألهية يهيب بالتأدب إلى أن يتحرر من ربة الجسد والمحة الصادقة ، فيهدى لغواً تقرأه العقول في ساع كلالها وتورها ، أو يستمع الناس إليه كما يستمع الموالدان إلى ولدهما المحبوب وهو يلثم بالألفاظ والكلمات ، فإذا كذب أو أخطأ أو مسخ الحقيقة أو شوه الفضيلة غفر له ذلك ولعل في النظر إلى الأدب كألهية مدعاة إلى الترويق في البيان ، والاكتثار من المحسنات البديعية من جناس وتورية وطى ونشر ، فيندم الطبع ويفدو الشعر مجموعة من الأعيب الفنية والتهرج الكلامي (٢) . والحق أننا بلقنا في هذا غاية تنكرها

(١) راجع المحاضرة الأولى من كتابه « لتني »

(٢) راجع المقال للشيخ الذي أئبت المعاد في صدر « اللطافات »

عامة شاملة؟ ثم الى تمييزه هل كان فيه مجيداً موفقاً؟ فإذا تبين
لى هنا كله على نحو ما أريد استحسنت وفضلت ، وأنا بحق نقفور
فى استحسانى وتفضيلى . وقد يكون من الخير أن تضرب لتلك
مثلاً توضيح فيه هذا الذى نزع ، قد تغنى الأمثلة عن تقرير القواعد
النظرية والشروح المستفيضة

ما اختلف. عربى الى جامع بنى أمية فى الشام إلا أخذته
حالة نفسية خاصة يتقاي المجد والمظلة ، يحسبها فى أطوائه غامضة
مبهمة ، كشيبة متحسرة ! فان كان مبيناً فصيحاً وشاء نشرها
وتوضيحها لم يزد على قول أمير الشعراء :

مردتُ بالمسجد المحزون أسأله هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبيدان
فلا الأذان أذان فى منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان !
هذه أبيات صادقة لا تحويه فيها ولا تضليل ، نظمها الشاعر
فى قالب رائع جميل ، ولعل فى بسط الحزن على المسجد ما يضاعف
هذه الروعة التى لا تلحها فى الكلمات منفردة ، وإنما تلحظها
منبتقة من خلال الاتساق والانسجام . إنه ليحلولى هذا التساؤل
عن مروان ، وهذا الترجيع للمحزون فأقبح فى مكاني هامساً فى
خفوت : « وا حمرته على شوقى ! »

ولنتأمل - فى روية وإنعام - صورة هذا المرز المهان
الذى يمرضها علينا شوق :

بنت فرعون فى السلاسل غمى أزمج الدهر عريها والخفاء
وأبوها العظيم ينظر لها رُدَّيت مثلما ردى الأمام
أعطيت جرة وقيل اليك النهم ر قومي كما تقوم النساء
فشت تظهر الأباء وتحمى الدمع مع ان تسرقه الضراء
فبكي رحمة وما كان من يه كى ، ولكننا أراد الوفاء !

ما أريد أن أتناول هذه الصورة الشعرية الرائعة بالتحليل أيقن
مواضع قوتها وجمالها ، فأتى ان لستها أخشى تشويهها والحط
من شأنها ، فحسى وحسب القارى تلاوتها فى هدوء تتلى ممأ
حلاوتها وتستشعر نضارتها . . إنما أطلب فى رفق ولين ، إلى
الشباب الناهض ، أن ينظر الى الأدب بين الجهد والصدق حتى
ينتج مثل انتاج شوق الخالد

محمد رزمى نصيب

حس «سورية»

التطور نصيب وافر ، فان المتأدين الذين درسوا فى مهاد أوربا
عادوا إلى ديارهم بسد ذلك يحملون رؤوساً وقلوباً غير التى كانوا
يحملون ، ذلك بأنهم تذوقوا أشتاتاً من الأدب الحى ، وبلوا
شخصيت من الشعراء ممتازة ، وفقهوا أساليب النقد الحديث ،
ولما أرادوا القيام برسالة « الحياة » شرعوا فى الهدم وازالة الأتقاض
وتنبيه الأمة إلى مواطن النقص والمزول والكذب

هذا جماع ما يترى الأدب فى اعتباره ملهامة وتسلية ؛ ولو
أنا شئنا التمثيل لأتينا بهذا الغرض الرضيع الذى يكاد يكون
كله غلواً وعبثاً ، ذلك هو المدح ، ومن البديهي أن يكثر فيه
الغلو البشع لأن المدح ليس يرضى الا اذا خلعت عليه صورة
ترفع من قدره وتمظ من شأنه ، ولأن المدح إنما جل همه
التكسب والاستجداء . فلا بد إذن من المبالغة والكذب فى
الاحساس والتوشية الموهمة ، ولذلك كان المدح من أنواع
الأدب الرخيص

وإنما الأدب العالى الرفيع تصوير لما يتردد فى أطواء النفس
من النزعات والشاعر ، وترجمه لما يجول فى الخاطر من الهواجس
والأحلام ، أو لغير هذا من صروف الحياة وأحداثها - يرسم
الشاعر ذلك كله لاهازلاً ولا عابثاً وإنما جاداً كل الجد ، صادقاً
تمام الصدق ، مخلصاً أوفى الأخلاص !

ارجع إلى نفسك حين تكتب ، تحذ عنها واستوحها ،
وليكن لك من صدق إحساسك ودقة تأملك وصفاء بصيرتك ما
تكشف به عن ألوان هذه الحياة النامية الزاخرة التى تسى فى
تلايف قلبك وثنايا ضلوعك بحيث تجدها صورتين : أولاهما فى
الضمير وأخرهما على القرطاس . فلن يكون الأدب أدباً إلا إذا
صدر عن صاحبه كما تصدر الزفرة عن فؤاد المصدور والدمعة عن
عين المحزون ؛ وإذا بهرك أن الشاعر أو الكاتب يدع فى
التصوير ويسمو فى البيان فينبى أن تؤمن أن الرجل إنما يذيب
من نخه وعصبه ، ويريق من مائه ودمه فى سبيل الفن والأدب !
والاستحسان إنما يجب أن يكون فى إطار هذا الأدب السامى
الرفيع يرسله البين لا خادعاً ولا مشموذاً وإنما مصوراً مشاعره
البينة الثيرة ونزواته الخفية المكبوتة . فأنا إذ أنقد أنظر إلى
إحساس الشاعر هل كان نافذاً عميقاً ؟ وإلى نظرت هل كانت